فضل القضاء

لفضيلة الشيخ/ أحمد بن محمد الشعفي*

إن القضاء مسلك وعر، ومركب خطر، وبقدر خطورته فيه فضل عظيم، لمن قوي على القيام به، وأدى الحق فيه، لأن فيه نصرة للمظلوم، وردعاً للظالم عن ظلمه، وإصلاحاً بين الناس، وحلاً لمشكلاتهم وخصوماتهم وتخليصاً لبعضهم من بعض، ورعاية لشؤون القصّار، وحفظاً لحقوقهم ورعايتهم، وفيه الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذلك تولاه النبي ﷺ والأنبياء قبله، وكانوا يحكمون لأممهم، وقد بعث صلى الله عليه وسلم علياً قاضياً إلى اليمن، كما بعث معاذاً قاضياً إلى اليمن، ولأن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم حكموا بين الناس، وقد بعث عمر رضي الله عنه أبا موسى الأشعري إلى البصرة قاضياً، كما بعث عبدالله بن مسعود إلى الكوفة قاضياً، فأعمال القاضي كلها من أبواب القرب إلى الله عز وجل، وقد أمر الله بالقسط، وهو العدل في قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ**﴾ (١)، ﴿**وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾(٣) وإن صلاح الإنسان في

---

* قاضي محكمة بلغازي

(١) سورة الأعراف الآية ٢٩.

(٢) سورة الممتحنة الآية ٨.

(٣) سورة النساء الآية ١١٤.

العدل، وفساده في الظلم، فالإصلاح في الآية الكريمة بين الناس عام في الدماء، والأعراض والأموال وفي كل شيء يقع فيه التداعي، وهو من صميم عمل القاضي، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أعد الله لمن قام بذلك ابتغاء مرضاة الله من الأجر العظيم، والآيات في هذا الباب كثيرة. وأما السنّة، فقد بوّب الإمام البخاري في صحيحه، قال: باب أجر من قضى بالحكمة في قوله تعالى ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾(٤)، ثم أورد حديثاً عن قيس عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق وآخر أتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها»(٥)، وحديث: «إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، ثم أخطأ، فله أجر» متفق عليه(٦)، وهذا دليل على أن القاضي مأجور في أحكامه بأجرين إذا وافقت أحكامه الصواب، وبأجر واحد إذا أخطأ وسقط عنه حكم الخطأ، فالقضاء كله أجر لمن خلصت نيته وعمل لإظهار الحق وإيصاله إلى أهله. عن «عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله تعالى على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» رواه مسلم (٧) فإذا جار وَكَلَه إلى نفسه. ووردت أحاديث أيضاً ترغّب في تولي القضاء، منها قول رسول الله ﷺ: «لَيومٌ واحدٌ من إمام عادل أفضل أو خير من عبادة ستين سنة، وحدٌّ يقام في أرض بحقه أزكى من مطر أربعين خريفاً» رواه إسحق بن راهويه في مسنده والطبراني في الكبير والأوسط وأبو عبيد في الأموال» انظر (القضاة في الإسلام) للدكتور محمد عبدالقادر أبو فارس ص ٢٣:

وقال عليه الصلاة والسلام: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - وذكر منهم

(٤) سورة المائدة الآية ٤٧.

(٥) صحيح البخاري ج ٤ ص ٢٣٤، في كتاب الأحكام وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب ما جاء في اجتهاد القضاء ج ٤ ص ٢٦٤ بحاشية السندي.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ حاشية السندي ج ٤ ص ٢٦٨ وفي جامع الأصول لابن الأثير ج ١٠ ص ٥٤٨، وأخرجه مسلم بشرح النووي ج ١١-١٢ ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٧) أخرجه مسلم تلخيص صحيح الإمام مسلم لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي ج ١ ص ٦٢٢. باب فضل الإمام المقسط والسنن الكبرى للبيهقي ج ١٠ ص ٨٧ - ٨٨.

ـ الإمام العادل» رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد(٨). وقال مسعود: «لأن أجلسَ فأقضيَ بين الناس أو لأن أجلس قاضياً بين اثنين أحب إليّ من عبادة سبعين سنة»(٩)، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «فإن القضاء عند مواطن الحق يوجب اللهُ تعالى به الأجرَ ويحسن به الذكر، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما ليس في قلبه شنأه الله تعالى، فإن الله لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً، فما ظنك بثواب من الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته». وعن عقبة بن عامر قال: «جاء خصمان يختصمان إلى رسول الله ﷺ فقال لي: اقض بينهما، قلت: أنت أولى بذلك، قال: وإن كان، قلت: علام أقضي؟ قال: اقض، فإن أصبت فلك عشرة أجور، وإن أخطأت فلك أجر واحد» رواه سعيد في سننه»(١٠). فرسالة القاضي عظيمة، وأجره أعظم لمن قوي على القيام به، وأدى الحق فيه، ولا شك في أهمية القضاء وما ورد فيه من أحاديث تبيّن خطره ووزره لمن لم يؤد الحق فيه، وفيه فضل عظيم وأجر كبير لمن قوي على القيام به وأدى الحق فيه. قال بن فرحون في تبصرة الحكام: اعلم أن كثيراً من المؤلفين من أصحابنا وغيرهم بالغوا في الترهيب والتحذير من الدخول في ولاية القضاء، وشددوا في كراهية السعي فيها، ورغبوا في الإعراض عنها والنفور والهرب منها، حتى تقرر في أذهان كثير من الفقهاء والصلحاء أن من ولي القضاء، فقد سهل عليه دينه وألقى بيده إلى التهلكة ورغب عما هو الأفضل، وساء اعتقادهم فيه، فهذا غلط فاحش يجب الرجوع عنه والتوبة منه، والواجب تعظيم هذا المنصب الشريف ومعرفة مكانته من الدين، فبه بعثت الرسل، وبالقيام به قامت السماوات والأرض وجعله النبي ﷺ من النعم التي يباح الحسد عليها، فقد جاء من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين»، وقد مر ذكر هذا الحديث آنفاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾، فأي شرف أعظم من محبة الله. واعلم

(٨) السنن الكبرى للبيهقي ج ١٠ ص ٨٧ في باب فضل من ابتلي بشيء من الأعمال من كتاب أدب القاضي.
(٩) المغني لابن قدامة ج ١٤ ص ٦ وانظر ما أخرجه البيهقي في باب فضل من ابتلي بشيء من الأعمال من كتاب آداب القاضي ج ١٠ ص ٨٩ بلفظ «لأن أقضي يوماً وأوتى فيه الحقّ والعدل أحب إلي من غزو سنة أو مائة يوم».
(١٠) المغني لابن قدامة ج ١٤ ص ٦ وعارضه الأحوذي شرح صحيح الترمذي ج ٦ ص ٧١.

أن كل ما جاء من الأحاديث التي فيها تخويف ووعيد إنما هي في قضاة الجور العلماءِ أو الجهالِ الذين يدخلون أنفسهم في هذا المنصب بغير علم، ففي هذين الصنفين جاء الوعيد، وأما قوله ﷺ «من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين» فقد أورده أكثر الناس في معرض التحذير من القضاء، وقال بعض أهل العلم: هذا الحديث دليل على شرف القضاء وعظيم منزلته وأن المتولي له مجاهد لنفسه وهواه، وهو دليل على فضيلة من قضى بالحق إذ جعله ذبيح الحق امتحاناً لتعظم له المثوبة امتناناً، فالقاضي لما استسلم لحكم الله وصبر على مخالفة الأقارب والأباعد في خصوماتهم، فلم تأخذه في الله تعالى لومة لائم حتى قادهم إلى مر الحق وكلمة العدل وكفاهم عن دواعي الهوى والعناد جعل ذبيح الحق لله وبلغ به حال الشهداء الذين لهم الجنة. وقد ولَّى رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل ـ كما مر بك ـ ومعقل بن يسار رضي الله عنهم القضاء، فنعم الذابح ونعم المذبوح، فالتحذير الوارد من الشرع إنما هو عن الظلم لا عن القضاء، فإن الجور في الأحكام واتباع الهوى فيه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، والتحذير الوارد أيضاً إنما هو عن الحرص على القضاء والتماسه لأن ذلك سبب الخذلان وعدم السداد فيه، نسأل الله أن يجعلنا ممن قوي على القيام به، وأدى الحق فيه، كما نسأله تعالى السلامة والتوفيق للصواب والعصمة من الزلل، وأن يعيننا على القيام بهذا العمل الجليل بكل إخلاص إنه جواد كريم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم